

سألني أحد الحراس المتجهمين، وأنا أجّر خطواتي برفق حاملاً صرةً مليئةً بالخبز على ظهري، ويتبعني جدّي صغير ينطّ بطريقة رشيقة: «أنت يا رجل. قف. لمن تأخذ قرابينك؟» أرسلتُ إليه نظرةً باردة، وناديتُ على الجدّي أن يتبعني، وسرتُ بهدوءٍ باتجاه القصر. ناداني مرةً أخرى بصوتٍ عالٍ: «من أنت؟» أجبتُه ببرود: «أنا سومريّ، وحرٌّ أن أقدم قرابيني لمن أشاء، وأدعى جليل القيسي، وذهبتُ باتجاه القصر.» أرسل إليّ نظرةً تعجّب شديدة، وأخرى إلى الجدّي الصغير السعيد في عالمه الحيواني، ونظرةً أخرى إلى صرة الخبز، ونظرةً انشدادٍ إلى بنطاليّ الجينز وإلى حذائي، وقال: «لكنّ من حقّي كحارس لهذا المكان، وفي هذا العيد المقدّس، أن أعرف لمن تقدّم قرابينك؟ هل هي لاي - كأل - لا،^(١) أم لمكان آخر؟» قلتُ بلامبالاة: «لو كانت قرابيني لاي - كأل - لا لكان يجب أن تكون من الخبز والجعة فقط.» وأضفتُ: «بيدو يا عزيزي الحارس أنك كسومريّ لا تفهم جيّدًا طقوسَ تقديم قرابين عيد كي - سوك.» أجابني بعصبية، وهو يغرّس رمحَه بقوة في الأرض: «ماذا؟ هل تفهمني بطقوس مدينتي الدينية؟ طبعًا أعرف جيّدًا أنّ عيد كي - سوك هو اليوم، ولهذا أنا هنا.» قلتُ: «حسناً أخبرني إذا ما هو هذا العيد؟» أجابني بنفاد صبر: «أرجوك.. أرجوك، الآن أخبرني عن وجهتك.» صرختُ: «هل حقًا يوجد سومريّ مخلص يمتنع سومريًا مخلصًا من تقديم قرابينه في عيد كي - سوك؟ أجِب. هذا كفر! إنّ قلب السومريّ في هذا اليوم يكون مليئًا بالمحبة، واللّهفة بالدعاء للآلهة لإحياء الأراضي البور.»

لانت قسماتُ وجه الحارس، وقال بصوت أقرب إلى الهمس: «يا صديقي السومريّ، يا ابنَ مدينتي، معذرةً. أنا في الحقيقة لا أملك. إنني أحترم مشاعرك الحارة. لكنّ الذهاب باتجاه قصر الأميرة ممنوع.» قلتُ: «لكنني مصرّ على أن أذهب إلى قصر الأميرة مي - سي. تعال معي.» قنّب وجهه وقال بارتباك: «أنت عاقل؟ مواطن عاديّ، وغريب الشكل والملبس، يذهب إلى الأميرة مي - سي؟» قلتُ: «أعرف أنّ هذا ليس أمرًا سهلاً، وفي هذا اليوم المبارك. عليك أن تصطحبني فقط وأنا أتكفّل ببقية الأمر.»

سار بخطوات مهزوزة. من بعيد كان حشد من الزوّار يتوجّهون إلى مسكن الباتسي، وأرتالٌ من الزوّار يحملون جرارًا كبيرةً مليئةً بالجعة، وتلالاً من الخبز يسحبون باتجاه القصر الملكي. وكان الكهنة والمحاسبون يردّدون بصوتٍ أمر «Ki-sug-ga»^(٢) وآخرون يردّدون: «Ki-Sugsu»^(٣) بعد مسيرة ربع ساعة وقفتُ أمام قصر منيف. قال الحارس: «هذا هو قصر الأميرة مي - سي.» كان الحشد الذي قدّم قرابينه للمحاسبين والكهنة قد تراجع بخطوات وبئدة وحركات رقيقة تدلّ على ذروة الخشوع، وراحوا يركلون بصوتٍ كوراليّ حزين: «الخوف من الآلهة مدعاة للعطف، والقرابين تطيل العمر.»^(٤)



بقيتُ مع صرة الخبز والجدّي والحارس. اقترب أحد المحاسبين وصرخ في وجهي: «لماذا واقف هنا؟ تحرك واجلب الجدّي وحمّلك من الخبز.» لم أعره اهتمامًا. تقدمتُ منّي ومدّ يده ليأخذ صرة الخبز. رفضتُ. قال: «من أنت؟ لمّ لا تسلّم قربانك وتذهب؟» قلتُ ببرود: «الجدّي والخبز للأميرة مي - سي شخصيًا.»

دقّق بصره فيّ بحيرة، بدءًا من حذائي إلى بنطالي، صعودًا إلى قميصي ووجهي وشعري القصير. وقال بتعجّب شديد: «أنت تريد أن تقابل الأميرة... مي - سي شخصيًا! حقًا من أنت؟»

♦ - كاتب عراقي.

١ - أي - كأل - لا: القصر الملكي.

٢ - هذه هي الحيوانات التي ورد ذكرها.

٣ - صبوها في البراميل الكبيرة.

٤ - صلاة سومرية عند تقديم القرابين.

- بل دعني أسألك أنا، من أنت؟ أنت dumu banda-ham^(١) وأعرف أنك مُولع بمراقبة القرايين لا حسب شروط القصر الأميري، بل حسب شروطك أنت. أيها المحاسب، أنا كمواطن سومري، ووفقاً للوائح، أجدني حراً في أن أقدم قرباني شخصياً للأميرة مي - سي. يحق للمواطن السومري أن يتبادل الهدايا، حتى البسيطة، مع الأمراء والأميرات.

هنا تدخل محاسب آخر محتدماً: «ماذا؟.. بجدي صغير أسود بلون الفحم تريد أن ترى الأميرة مي - سي، ونحن نحضر آلاف الهدايا في الحظائر ولا نستطيع رؤيتها من بعيد؟»

- لأن أي واحد منكم لا يفكر في الأميرة كتحفة، كسحر، كجمال أسطوري. ثم لماذا تسخر من هديتي المتواضعة في هذا اليوم المقدس؟ إنك أيها المحاسب لا تعرف قوانين سومر في تقديم الهدايا. اسمع. عندما وضعت ابنة برنمتارس طفلاً قدّم أحدهم لها جملًا، وقدمت زوجته أحد ربانة السفن وزوجه خروفاً واحداً. وأنت تمنعني من أن آخذ جدياً وكومة خبز للأميرة؟ أنت لا ولن تعرف تلك التحفة العظيمة، مي - سي. إذا منعني من مقابلتها وضعت نفسك تحت طائلة عقاب إهانة مواطن سومري يريد أن يقدم قرباناً لأميرته في عيد مقدس. يبدو أن النهم أساكم التواضع. هيا، أفسح الطريق وأعلن بأعلى صوتك أن رجلاً سومرياً طيباً يدعى جليل القيسي يريد مقابلة الأميرة مي - سي.



انسحب المحاسب فاسحاً الطريق لي وللجدي والحارس. قطعت مسافة طويلة أمشي برفق في رواق طويل وجميل مضاء بشموع كبيرة. استقبلني رجل وقال: «ما هذا العياط؟» ولدهشتي سمعت صوت المحاسب يقول: «هذا الرجل الغريب الشكل والملبس يصر على مقابلة الأميرة مي - سي.»

سألني الشاب: «أأنت مجنون؟»

- بأي حق تتهمني بالمجنون؟ أهذه لغة رجل يعمل في قصر أميرة عظيمة مثل مي - سي؟ أنت تعرف عما تعبر التقديمات في الأعياد؟
- عن ممارسة دينية. لكن...

- لا، لا. أنت إذن تجهل الطقوس السومرية. نعم الدين جزء، ولكنها تعبر أيضاً عن الفرح الشديد، والصداقة، والمحبة، والرغبة في تكريم الأمراء والأميرات لأنهم يمثلون الآلهة.

- وأنت تريد أن ترى ممثل الآلهة؟

- من غير سخرية رجاء. من حقّي.. ثم إن الأميرة بشرٌ مثلي.

- ماذا تريد منها؟

- إنني أحبها.

- هل سبق أن رأيتها؟

- في الحلم فقط.

من بعيد جاء صوت نسوي ناعم ورقيق يلامس القلب: «دع هذا السومري الأصيل يدخل عليّ». جمد الشاب في مكانه وتمتم قائلاً: «أيتها الآلهة... الأميرة بلسانها تطلبه؟» ثم وضع باطن يده على كتفي وقال بأدب جم: «اتبعني، سيدي.»

دخلت غرفة بلون الذهب، ووجدتني وجهاً لوجه أمام أروع وأبدع جمال خلقه الرب.

١ - مسؤول حسابات بيت الأمير.

قالت بصوت رخم: «حسن.. ماذا تريد أيُّها السومري؟»

قلت: «حسن. لقد انتصرتُ يا مولاتي الأميرة.»

- انتصرتُ؟ على ماذا؟

- على نفسي.

- أفصح.

- أيُّها الأميرة المجلَّة مي - سي، كنتُ قبل أن أراك أقول مع نفسي إنَّ الإله عندما خلَقَكَ قد أودَّعَ فيكَ غوامضَ الكون المقدَّسة.

لانت قسماتُ وجهها الساحر وهي تستمع إلى كلماتي وقالت: «هذا الكلام قبل أن تراني. والآن هل مازالت في غوامضَ الكون المقدَّسة؟»

- أه، أيُّها المرصَّعة بالنجوم والزمرد، أجل ستبقين كذلك إلى يوم الدين.

- ما اسمك؟

- جليل.

- يبدو يا جليل أنني إنْ أطلتُ الحديثَ معك فلن ترتوي من التلطف إليّ.

- لأنني يا أميرتي أعترف بأنني ضعيف جداً أمامك. ملعونٌ كلُّ واحد في مدينتك لا يشعر بالضعف أمام جمالك.

- يا جليل، أين ومتى تخيلتني، أو رأيتني أولَ مرَّة؟

- في الحلم... في ليلة صيفية مرصَّعة بالنجوم. رأيتكِ وأنت تقتربين مني مثل خفقات، مثل القلق، مثل بشيرٍ يدعوني إلى احتفالات أبدية.

- حقاً. لماذا؟

- أقسم.. أولست وسيطةً بين الآلهة والمدينة؟ وكنتُ يا أميرتي أحلم بك أيضاً كسمو، كتحفة، كجمال أسطوري. أه.. أنت.. أنت..

- أنا ماذا؟

- منذ أن حلمتُ بك، وحتى هذه اللحظة، وأنتِ نار متقددة في رأسي.

- هل جئتُ إلى هنا وفي هذا العيد لتغازلني؟

- أرجوك يا أميرتي، لا تعكَّري عليّ وجودي أمامك في هذا الصباح المشرق.

- لكن واضح أنك تغازلني.

- أميرتي، الحب لا يعترف بأيَّة قوَّة. لكن أني لي أن أحبكِ وأنا زبدٌ جفاء، مجردُ سومريٍّ بسيط.

- حسن... ماذا لو أحببتُك أنا.

نظرتُ إلى لمعان عينيها: كان مثل سكينٍ تحزُّ القلب. عندما تأخَّرتُ في الردِّ عليها قالت بصوت فيه جرسٌ أمرٌ: «ماذا قلتُ؟ ماذا لو أحببتُك أنا؟»

- كنتُ يا أميرتي أصدق نفسي لو كنتُ أنا وأنتِ كالفتح والماس.

- كيف، وهما مادتان متنافرتان؟

- لا يا أميرتي، إنَّهما من عنصر واحد. أنا بحكم أرومتي الفقيرة أنساب من بين أصابعك.

- حسن. ماذا لو أردت أن أتنازل أنا عن أرومتي وعن حق تمثيلي للآلهة؟
- وهل أستحق، أنا جليل القيسي، أن تتنازل أميرتي العظيمة، والمجد يضيء جبينها، عن أرومتها من أجلي؟
- قلت قبل قليل إنَّ الحبَّ لا يعترف بأية قوَّة. أتعرف يا جليل أنني في هذا البذخ الخزافي دائمة الشكاة؟ السأم.. السأم. عالم سخييف هذا يا جليل، أليس كذلك؟
- لا تعليق لي وأميرتي تقول الحقيقة.



- أَمَرْتُ بتقديم الخمر لي. شربتُ بلذَّة. قالت بعد أن أخذتُ رشفةً من كأسها: «أية قوَّة مقدَّسة جلبتُكَ إلى هنا؟»
- حلمي، وأنتِ، والعيدُ المقدَّس، وعنادي، وربما قدرتي والتهابي بنيران تخيلاتني... وأخيراً الطقوسُ الجميلةُ لعيد Ki-sug.
- أنا، يا جليل، ممثلةُ الآلهة التي تمنحُ الخصبَ للذين لهم أراضٍ بور. لا أعتقدُ أن إنساناً شاعراً وحالماً مثلك لديه أراضٍ بور جاء ليطلب منِّي أن أرجو الآلهة أن تُحييها.
- لا أريد العالم كله بعد أن رأيْتُكَ.
- لماذا جئتُ إذاً يا جليل؟
- بالإضافة إلى رؤيتك، لديَّ حبٌّ روحي للعديد من طقوس أجدادي وأعيادهم. أزور هذه المدينة وتلك، وأشعر بحرقه في قلبي وروحي، وبكبرياء يصل حدَّ الوجد... لحضارتي.
- أصيلُ أنت. من أية مدينة؟
- من مدينة أرنجا... أرنجا التي أعشقها.^(١)
- هذا الجدي الصغير جلبته معك من أرنجا؟
- الطقوس هي الطقوس يا أميرتي. ثم يجب أن يُعطى كلُّ ذي حقِّ حقَّه.
- أيُّ حقِّ عليك يا جليل؟
- حقَّ التاريخ الذي أحترمه. ولأنك أميرة، ومصطفاه، وساحرةُ الجمال...
- قاطعتني فجأةً، وهي تقول:
- أيُّ من هذه الصفات أكثرُ قرباً إلى قلبك؟
- الثلاث معاً.
- كذاب.
- كذبٌ أبيضُ أشرفُ بكثيرٍ من صدق بلا معنى.
- أطلقتُ ضحكاً ناعماً وقالت: «أقتربُ منِّي يا جليل. أشعر برغبة صادقة في أن أقبلَكَ!»
- أميرتي... أرجوك!

١ - أرنجا: الاسم القديم لمدينة كركوك.

- يا جليل، أنا التي تسيء الأدب لا أنت. هيا اقترب.
- ذهبت بخطوات قصيرة واقتربت منها. بحركة جذ ناعمة، وعفوية، وعذبة قبلتني بحرارة فوق شفتي مرات عديدة، وقالت:
- اجلس جنبي. اشرب أكثر. لماذا تغلق عينيك هكذا؟
- بصراحة، أميرتي، أشعر أن أسلاك أعصابي قد اشتعلت. إنني الآن مليء بخيال مهلوس.
- وماذا بعد يا جليل... تكلم.
- أميرتي، أشعر أنني مترتع بلهيب غريب. إن صوتك الذي يهب كالنسيم يجعلني أحلق في هواء أثيري. أنا الآن لهيبٌ وجليدٌ. إن السعادة تغمر لي بطريقة شيطانية. إن جمالك وقبلاتك ترعش قلبي وتضئ بصري. لذا أغلق عيني.
- أطلقت ضحكة صدأحة رنّت في أذني وقلبي، وهي تقول بصوت بلوري نقي: «جليل، أريد أن أحبك.»
- ما هذه الكلمات السحابية يا أميرتي؟ ما هذا العنصر الفياض في مشاعرك؟ إنك تملأين روحي بخوف حلزوني. يا إلهي! هل حقاً تريد أن تجرّي على نفسك لعنة الآلهة؟ لا لا! وقبل أن تسمحي لي بمغادرة قصركِ، دعيني أقدم لك هذا الخبز اللذيذ المصنوع بالزيت -ninda-ban da. هذا الخبز مصنوع بيد نساء أرنا الرائعات. كلّي...»
- أخذت قضمَةً صغيرةً من الخبز وهي تقول: «مباركُ خبزكم يا أهالي مدينة أرنا. وسوف أطلب من الآلهة أن لا تكون أراضيكم بوراً بعد الآن، وأن يكثر فيها الخبز والزيتون والصفاء. في المرة القادمة يا جليل تعال وحدك من غير قرايين.
- لماذا يا أميرتي؟
- ربما في المرة القادمة لن أدعك ترحل.
- لماذا يا أميرتي؟
- لأنك ستكون من نصيبي. أما الآن فاذهب. لا أريد أن أشلّ جسدك وجسدي. تعال السنة القادمة. مرةً أخرى، مباركون أهل أرنا. إن الإله أنليل لن يخيب رجائي. اذهب... يجب أن تجيء في السنة القادمة. وداعاً.

بغداد